مصطلح "الاستدراج" المفهوم والأثر

دراسة بلاغية، تأصيلا، وتطبيقا

د. محمد بن عبد الرحمن الخراز

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المشارك

في قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة القصيم

١٤٣٥-١٤٣٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

منذ فترة ليست بالقريبة لفت انتباهي مصطلح (الاستدراج)، وسجلت ملاحظة عابرة عن أهمية التحقق من هذا المصطلح ومفهومه، ثم ازداد اهتمامي به من كثرة تداوله في الكتب والتفاسير بالمفهوم العام له، إلى أن تطور المفهوم الميسر لهذا المصطلح في ذهني إلى مفهوم أكثر تعقيدا وعمقا.. وذلك بعدما طالعت بعض كلام العلماء فيه من مختلف المشارب العلمية المتنوعة؛ بين تفسير، وبلاغة، وعلم كلام، وغيرها.. فرأيت بذلك أنه يستحق العناية به ومزيد الاهتمام.

ثم إنني اطلعت بعدها على مازعمه ابن الأثير "أن مدار البلاغة كلها عليه"!، فبلغ الاهتمام به عندي علياء درجته.. لاسيما وأن المعنيين بمفهوم البلاغة الحجاجية الحديثة صاروا يجلبون هذا المصطلح إلى قائمة مصطلحات هذا التيار البلاغي الحديث نسبيا..

فهنا تحتم عليَّ وطاب لي العكوف على دراسته وتمحيص مصطلحه، فتلفَّت للحصول على دراسات فيه، فوجدتها أقوالا متفرقة في التفاسير وكتب البلاغة وغيرها، ومع ذلك رأيت فيها مادة صالحة لبناء دراسة خاصة فيه تلم شعث الأقوال وتحقق المفاهيم والحدود والآثار..

ثم إنه بعد التقصي والبحث في قوائم المنشورات العملية عثرت على بحثين في (الاستدراج)، أحدهما موجز منشور على الشبكة المعلوماتية، بصيغة **pdf**. بعنوان (الاستدراج في القرآن الكريم والسنة الشريفة، للدكتور رياض هاشم هادي) ، إلا أنه –في الواقع– لا صلة له مطلقا بالجانب البلاغي من مصطلح (الاستدراج)؛ إذ كان معنيا بالاستدراج الإلهي للكافرين والطغاة والمجرمين.

والثاني هو البلاغي، وعنوانه(الاستدراج في القرآن الكريم) أعده رضا السيد، رسالة ماجستير، في أربعة فصول تطبيقية: (الأول: الاستدراج بالحوار، والثاني: الاستدراج بالاستفهام، والثالث: الاستدراج بالقَسم، والرابع الاستدراج بالتمثيل). لكنه بحث تطبيقي بحت –حسب ما تدل فصوله، ولم يتيسر لي اقتناؤه– فلم يعن فيه كما ينبغي بالمصطلح ذاته، تأصيلا وتأطيرا من الوجهة البلاغية؛ وكيفية البحث فيه واستخراجه، فقد اقتصر على الجانب التطبيقي المحدد في فصوله الأربعة التي أشرت إليها آنفا.

وهنا تحدد هدف بحثي وإطاره في نطاق التصور الآتي: (تحقيق المصطلح وتحرير دلالاته ومفهومه، واستعمالات العلماء له ومقاصدهم فيه، وطريقة تعاملهم معه عند التطبيق على النصوص الأدبية وغيرها).

أما منهجي في هذا البحث فقائم على الاستقراء لما قيل حول هذا المصطلح، وربط الأقوال، وضم النظير إلى نظيره وتحليلها بلاغيا لاستخراج الدلالة المعْنِية للمصطلح من الوجهة البلاغية ، وتحريرها بالنحو الذي يميزها عن باقي المفاهيم والمقاصد التي استُعمل لأجلها هذا المصطلح ، فمن تلك المفاهيم ما هو شرعي، وفلسفي، وسياسي، وأخلاقي واجتماعي.

كما عني البحث بوضع آليات التطبيق الملائمة لإدراك وجوه البلاغة ودقائقها في أي نص يحتوي استدراجا بلاغيا، ولتحقيق هذا المطلب استَنبطت القيم والضوابط والآليات من كلام العلماء وإشاراتهم، ووضعتها في سياق مُترابط يشكل أدوات علمية بلاغية محددة المعالم لمن أراد الإفادة منها في دراسة النصوص المختلفة.

وجاءت دراستي في المباحث التالية: المبحث الأول: تحرير المصطلح، المبحث الثاني:
الأهمية والأثر ثم خلاصة وخاتمة.

المبحث الأول: تحرير المصطلح

أ- وقوع الاستدراج البلاغي في القرآن الكريم وفي الشعر النثر:

كما يقع الاستدراج في النثر ، فهو يقع في الشعر، وقد درسه البلاغيون في كل منهما، لكنهم عنو به أيما عناية في القرآن الكريم، وذلك لكونه معدودا عندهم في أرقى أساليب البلاغة. قال ابن الأثير: (وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس؛ لاسيما في مخاطبات الأنبياء صلوات الله عليهم للكفار والرد عليهم)[١].

وقال الألوسي عند قول الله تعالى:{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا}[البقرة: ١٣٧] : ({إنْ}- لمجرد الفرض. والكلامُ من باب الاستدراج، وإرخاء العنان مع الخصم حيث يراد تبكيته، وهو مما تتراكض فيه خيول المناظرين- فلا بأس بحمل كلام الله تعالى عليه)[٢].

وعبر العلوي في الطراز عن كثرته في القرآن الكريم، وأن فيه (سعة من هذا، ومملوء من حسن الحجاج والملاطفة، خاصة لمنكري المعاد الأخروي، وعباد الأوثان والأصنام)[٣]، وذلك بعد أن عد

---

[١] المثل السائر: ٦٦/٢

[٢] روح المعاني، للألوسي: ٣٩٤/١

[٣] الطراز ، للعلوي: ٢/ ١٥٠

أسلوب "الاستدراج" ضربا من الحِجاج ونوعا منه، وسيأتي الكلام عن العلاقة بين هذين المصطلحين.

وأما وقوع الاستدراج في الشعر فإن العلوي من القلائل الذين أشادوا بذلك واستشهدوا له، حيث ساق له قصيدة دارت مضامينها وأساليبها في إطار هذا الفن، وهي لأبي الطيب المتنبي كان يستدرج فيها وبها تطييب خاطر سيف الدولة بسبب حادثة وقعت، وتشاءم من أجله ؛ وحكاها العلوي بقوله: (ومن لطيف ما جاء في الاستدراج من المنظوم ما قاله أبو الطيب المتنبي: وذلك أن سيف الدولة كان مخيِّما بأرض الديار البكرية على مدينة ميّا فارقين، ليأخذها، فعصفت الريح خيمته فأسقطتها فتطير الناس لذلك، وقالوا إنه لا يأخذها فامتدحه أبو الطيب بقصيدة لامية يعتذر فيها عن سقوط الخيمة، و"يَستدرج" ما أثر ذلك في صدره بالإزالة والمحو، تقريبا لخاطره، وتطييبا لنفسه، فأجاد فيها كل الإجادة، وأحسن في الاعتذار والاستدراج غاية الإحسان، مطلعها: «أينفع في الخيمة العذل» ومنها قوله:

تضيق بشخصك أرجاؤها ... ويركض في الواحد الجحفل

وتقصر ما كنت في جوفها ... وتركز فيها القنا الذبل)[٤].

---

[٤] الطراز، للعلوي : ١٥٦/٢

وربما لا يحتاج الأمر لإثبات أن هذا الفن يقع في الشعر كما يقع في النثر وغيره، لكن لكونه فنا جدليا فيما يبدو للناظر أول الأمر فقد يظن أنه مقصور على النثر، أو أنه أكثر في النثر وأولى به من الشعر، كما هي حال (المذهب الكلامي)، لكن الأمر ليس كذلك، فهو بليغ في الشعر كما النثر، وإن كان بالثاني منهما ألصق وأليق، فلذا قال العلوي عقب حكايته لقصة سيف الدولة والمتنبي مع الخيمة، وأن شعر المتنبي قد وقع الموقع الحسن من نفس الأمير المتشائم: (فهذه الأبيات من أعظم الأمثلة في الاستدراج وإزالة ما يقع في النفوس، ولو لم يكن في شعره إلا هذه القصيدة، لكانت كافية في معرفة فضله، وكونه فائقا فيه)[٥].

وكان الشهاب الخفاجي ممن أشار للاستدراج الواقع نظما وشعرا، نقله عن ابن السيد، تعليقا على قول أبي العلاء المعري في ديوانه:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

قال الشهاب: (قال ابن السيد في شرحه: هذا منظوم مما روي عن عليّ رضي الله عته أنه قال لبعض من تشكك في البعث

---

[٥] الطراز، للعلوي : ١٥٦/٢

والآخرة: إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة فقد تخلصنا جميعاً وان لم يكن الأمر كما تقول فقد تخلصنا وهلكتَ. فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده، وهذا الكلام وان خرج مخرج الشك فإنما هو تقرير للمخاطب على خطئه وقِلة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه مع أنّ المُناظر على ثقة من أمره، وهو نوع من أنواع الجدل)، ثم قال الشهاب: (تنبيه: هذا النوع يسمى استدراجاً)[٦].

ب- البدائل والمرادفات:

مصطلح "الاستدراج" من أكثر المصطلحات البلاغية عمومية وشمولا، وقد نراه عند النظرات الأولى مصطلحا مبهما غامضا؛ لِكون كثير من البلاغيين والمفسرين استعمله مرادفا لمصطلحات أخرى أو قريبا منها ، كالتعريض، والحجاج، والمذهب الكلامي، وحسن التقسيم، والكناية[٧] ، والكلام المُنصِف، وغيرها..

فالشهاب الخفاجي يجعل (الاستدراج) اسما مرادفا لما دعاه البلاغيون: (الكلام المنصف)، فيقول في سياق تفسير {فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ }[هود: ٦٣]: (حرف الشك هو {إنْ} وأصل وضعها أنها لشك المتكلم، وهو غير شاك في كونه على بَينة لكنه من

[٦] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٤٦/٤

[٧] ينظر : مرقاة المفاتيح:

الكلام المنصِف والاستدراج)[٨]. وتابعه الألوسي في مرادفة المصطلحين بقوله: (يجوز أن يكون هذا من الكلام المنصف والاستدراج)[٩].

وسَترد نصوص أخرى تشير لهذا التقارب الذهني في الدلالة والمضمون بين المصطلحين.

لكن التحقيق في كلامهم يكشف عن مرادهم، وهو أنهم رأوا الاستدراج اسما ولقبا لمجموعة من الأساليب البلاغية التي يجمعها "لُطف العبارة ودقة المسلك إلى قلب السامع وعقله"، ومنها أسلوب تجاهل العارف، ويسميه بعض البلاغيين –تأدبا مع القرآن الكريم– (سوق المعلوم مساق غيره لنكتةٍ) كما في قوله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[سبأ: ٢٤]

فهذه الآية لا تحمل على ظاهرها؛ (لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَشُكَّ أنه على هدىً ويقينٍ، وأنَّ الكفارَ على ضلالٍ، وإنما هذا الكلامُ جارٍ على ما يَتَخاطَبُ به العربُ من استعمالِ الإنصاف في محاوراتِهم على سبيل الفَرَضِ والتقدير ويُسَمِّيه أهلُ البيانِ

---

[٨] حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: ١١٠/٥

[٩] روح المعاني ، للألوسي: ٦/ ٢١٤

الاستدراجِ)[١٠]، فهنا اتضح ترادف مصطلحي (تجاهل العارف) و (الاستدراج)، ترادُفا ظاهريا فحسب، لأنه --عند التحقيق الذي سيأتي الكشف عنه- سيتضح أنه ليس ثمة ترادف، وإنما هو عموم وخصوص..

كما أن من الأساليب والفنون البلاغية التي تندرج تحت مصطلح (الاستدراج)، -وإن ترادفت معه ظاهريا في تعبيرات بعض البلاغيين والمفسرين- فن (المذهب الكلامي)، وهو بتعريف ابن المعتز: (إيراد حُجة على المطلوب على طريقة أهل المنطق، وهي أن تكون المقدمات مُستلزِمة للمطلوب)[١١]، إلا أنه ثمة فرق يمنع الترادف؛ إذ إن من الاحتجاج المنطقي على طريقة المذهب الكلامي ما يكون سبيله المواجهة والمصارحة، وهنا يتميز عنه فن (الاستدراج) الذي يقوم على الملاطفة ولا ينفك عن الملاينة كما وصفه علماء البلاغة.

فما يكون من المذهب الكلامي استدراجا هو ما حقق شرط اللطف والملاينة والتدرج مع الخصم، كما هو جلي وواضح في قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ} [الرعد:٣٣]

---

[١٠] الدر المصون، للسمين الحلبي : ١٢/

[١١] البديع، لابن المعتز: ٣١

فقد أشار الطيبي إلى ما في الآية الكريمة من احتجاج بليغ مبنى على فنونٍ من علم البيان؛ أي: "كمن ليس كذلك"، فهو احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما..

ثم ذكر وجه الاستدراج الحجاجي في الآية، وجعله وجها خامسا عند قوله تعالى: {أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ}[الرعد:٣٣]، فهو: (احتجاج من باب "الاستدراج" لبعثهم على التفكر. أى: أتقولون بأفواهكم من غير روية، وأنتم ألبَّاء فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه!). ثم قال: (قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: الِاستدْرَاجُ أَنْ يتدرَّج إِلى الشَّيءِ في خُفْيةٍ قَلِيلًا قَلِيلًا فلا يُباغِتُ، ولا يُجاهِر)[١٢].

وإلى موقع (المذهب الكلامي) من الاستدراج يشير قول ابن الأثير: (فإذا لم يتصرف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده وإلا فليس بكاتب. ولا شبيهَ له إلا صاحب الجدل؛ فكما أن ذاك يتصرف في المغالطات القياسية فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية)[١٣].

وأما التقارب مع مصطلح (حسن التعليل) فقد سبقت الإشارة إليه مع القصيدة التي قالها أبو الطيب يخاطب سيف الدولة لما

---

[١٢] حكاه عن الطيبي في : التفسير الوسيط ، طنطاوي: ٤٨٨/٧

[١٣] المثل السائر، لابن الأثير: ٦٤/٢

سقطت خيمته وتشاءم لذلك السقوط! فاستدرج أبو الطيب تطييب خاطره.. فما ذكره في قصيدته من المعاني التعليلية اللطيفة يطلق عليه (حسن التعليل)، مع ما فيه من حُسن الاستدراج، وكلا المصطلحين وردا في كلام العلوي كالمترادفين، قال العلوي: (فامتدحه أبو الطيب بقصيدة لامية يعتذر فيها عن سقوط الخيمة، ويستدرج ما أثر ذلك في صدره بالإزالة والمحو، تقريبا لخاطره، وتطييباً لنفسه، فأجاد فيها كل الإجادة، وأحسن في الاعتذار والاستدراج غاية الإحسان، مطلعها: «أينفع في الخيمة العذل»)[١٤].. مع أنه لا ترادف، بل عموم وخصوص كما ذكرنا، فحسن التعليل فرد من عائلة (الاستدراج)، بشرط أن يقصد من حسن التعليل تقريب المخاطب واستدناءه بعد نفور وتجاف عنه.

فهذه ثلاثة فنون دخلت تحت مصطلح الاستدراج، لكونها تحقق شرطه البلاغي الذي دلت عليه مادته اللغوية.

لكن التقارب والتشابه في الاستعمال والدلالة بين (الاستدراج) ومصطلحات بلاغية أخرى لا ينتهي عند هذا الحد إذ إنه ثمة فنون أخرى، بل فنون كثيرة تقع تحت مظلته، وتتبع عائلته، ومن هنا نتفهم قول ابن الأثير عن الاستدراج: (وإذا حُقق النظر فيه عُلم أن

---

[١٤] الطراز، للعلوي: ٢/ ١٥٦

مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها)[١٥]. فابن الأثير بكلامه هذا يكاد يجعل (الاستدراج) مرادفا لمصطلح (البلاغة) رأسا، وهو محق في هذا الزعم إلى حد بعيد، يرتفع به من مجرد كونه فنا من فنون البديع، كما هو الوصف الشائع. لكن ليس محقا في زعمه مطلقا، للسبب الذي سنقف عليه لاحقا...

والفن الرابع المقارن لمصطلح الاستدراج في استعمالات بعض البلاغيين والمفسرين هو (التعريض)، وهو: (الإتيان بكلام مشار به إلى جانب هو مطلوب، وإبهام أن الغرض جانب أخر وسمي تعريضا لما فيه من الميل عن المطلوب إلى عُرض- بالضم، أي جانب)[١٦]. فعند التمعن في هذا المفهوم والتعريف ينكشف أن التعريض من أدق أنواع (الاستدراج) بل من أخصها به، فهو داخل دخولا أوليا في مضمون دلالته وغايته؛ من حيث ما فيه من لطف التوصُّل إلى الهدف من الكلام والغاية من البيان، وقد صرح الألوسي بهذا التقارب في المصطلح والدلالة في تفسير قول الله تعالى: {وإذا

---

[١٥] المثل السائر، لابن الأثير: ٦٤/٢

[١٦] أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم: ٤٥٠/١

الموءودة سُئلت بأي ذنب قُتلت}[التكوير:٨-٩]، قال: (وتوجيه السؤال إلى الموءودة في قوله تعالى {سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} دون الوائد -مع أن الذَّنْب له دونها- لتسليتها وإظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها، وإسقاطه عن درجة الخطاب، والمبالغةِ في تبكيته؛ فإن المجني عليه إذا سُئل بمحضر الجاني ونُسبت إليه الجناية دون الجاني كان ذلك بعثا للجاني على التفكر في حال نفسه وحال المجني عليه؛ فيرى براءة ساحته، وأنه هو المستحق للعتاب والعقاب، وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض كما في قوله تعالى {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ} [المائدة: ١١٦].

وعند البروساوي في تفسيره (روح البيان) أن من الاستدراج (التعريض) أي بأن يكون في التعريض استدراج للخصم ليُقر بغبائه أو غفلته أو يكون تعريضا له لينتبه[١٧]..

والفن الخامس مما اقترن ذكره بالاستدراج، على سبيل العوض في المصطلح، أو الفرد من أفراده هو (حُسن التقسيم)، الذي هو تقسيم (المعنى بأقسامٍ تستكمله، فلا تنقص عنه، ولا تزيد عليه، كما قال الله تعالى: { هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا

[١٧] ينظر: روح البيان، إسماعيل حقي البروساوي: ٥٦/١

"[الرعد: ١٢])[١٨]

إلا أنه ليس كل تقسيم يعد استدراجا، فالداخل في الاستدراج من حسن التقسيم هو ما قُصد منه إلزام المخالف أو المعارض بما هو منكِر له أو معترض عليه عن طريق وضعه أمام خيارات محددة لا مفر له من واحد منها، وأما مالا يكون هذا هو القصد منه فلا يدخل في مفهومه؛ لأن الاستدراج يلازمه شرطان: الأول: الإقناع أو الإلزام أو الاحتجاج للمعارض أو المتمنِّع أو الشاك، والثاني: اللطف والتدرج في ذلك كله.

ومن النماذج لما لا يدخل في الاستدراج من حسن التقسيم ..أن يكون القصد من حسن التقسيم استيفاء المدح في خطاب مَن لا يعترض عليه ولا ينكره؛ كقول الشاعر:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ... ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

(فأتى بجميع ما استعمل في وقت الهياج، وزاد ممدوحه رتبة، وتقدم به خطوة على أقرانه)[١٩]. فهذا حسن تقسيم فحسب، ولا يتضمن استدراجا؛ لأنه مدح مجرد لايقصد منه قصد جدلي احتجاجي مطلقا.

---

[١٨] البديع، لابن المعتز : ٦١

[١٩] العمدة ، لابن رشيق القيرواني: ٢٣/٢

وأما (حسن التقسيم الاستدراجي) فظاهر في أي شاهد له يتضمن احتجاجا لطيفا ، مثل قول الحق سبحانه: {وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}[غافر: ٢٨] ، فقد تضمنت الآية الكريمة (الاحتجاج عليهم على جهة التقسيم؛ فقال: ليس يخلو حاله إما أن يكون كاذبا فضرر كذبه يعود عليه، وأنتم خالصون عنه، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن تعرضتم لقتله)[٢٠]. فهنا تحقق شرطا الاستدراج اللذان أشرت إليها آنفا؛ (الإقناع، واللطف فيه).

والفن السادس مما قد تدخل بعض صوره تحت مفهوم (الاستدراج)، هو (الالتفات)، ولم أجد ممن أشار لهذا الأمر سوى حازم القرطاجني في كتابه (منهاج البلغاء)، حيث قال: (اعلم أن الانعطاف بالكلام مِن جهة إلى أخرى أو غرض إلى آخر لا يخلو من أن يكون مقصودا، أوْ لا، فيذكر الغرض الأول لأن "يستدرج" منه إلى الثاني وتجعل مآخذ الكلام في الغرض الأول صالحة مُهيأة لأن يقع بعدها الغرض الثاني موقعا لطيفا وينتقل من أحدهما إلى الآخر

[٢٠] الطراز، للعلوي: ١٤٨/٢

انتقالا مستطرَفا، لذكر الغرض الثاني[...] فما كان من قبيل هذا القسم الثاني فإنه الذي يعرف بالالتفات)[٢١]

فقد جمع حازم بهذا الكلام بين تعريف الالتفات بنحو ما عرفه البلاغيون مع بيانه لوجه الاستدراج الدارج معه.. فإن الانتقال في الالتفات يكون لطيفا مستطرفا، ليتوصل به إلى استدراج السامع للمعنى التالي والمقصد الأهم.

ونجد عند القرطاجني فنا سابعا يصب في بحر الاستدراج أيضا ويغذي مفهومه الواسع، وهو ما سماه البديعيون (حُسن التخلص) في بعض صوره، ومعناه –كما عند الحموي في الخزانة– (أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه بِتَخلصٍ سهلٍ؛ يَختلس اختلاسًا رشيقًا دقيقَ المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلَّا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد)[٢٢].

وهذا التعريف يدل بنفسه على أن حسن التخلص نوع من الاستدراج، وباب من أبوابه الكثيرة؛ إذا في الاستدراج كما نُقل

---

[٢١] منهاج البلغاء، للقرطاجني: ١٠١/١

[٢٢] خزانة الأدب، للحموي: ٣٢٩/١

عن أبي عبيدة وأهل المعاني (يَدرج المتكلم إلى الشيء في خفية قليلا قليلا، ولا يباغت ولا يجاهر)[٢٣]، وأبو عبيدة قال أيضا: (الاستدراج أن يأتيه من حيث لا يعلم)[٢٤].

وللقرطاجني عبارة تشير إلى العلاقة بين (حسن التخلص) والاستدراج، وذلك قوله: (أهل البديع يسمون ما كان الخروج فيه "بتدرج" تخلصا، وما لم يكن بتدرج ولا هجوم ولكن بانعطاف طارئ على جهة من الالتفات استطرادا)[٢٥]. إذا إن المستمع أو المخاطب كأنه "يتمنع" في تقبل الخروج إلى المعنى التالي بعد أن يألف المعنى الذي كان فيه، فيعمد المتكلم إلى (استدراجه) من الممانعة إلى التسليم في المتابعة إلى المعنى التالي في القصيدة.

والفن الثامن مما اتضح لي أنه أساس من أساسات براعة الاستدراج هو (حسن الابتداء)، إذ لو بدأ المتكلم مخاطَبه بما يكرهه –مثلا– لم يُصغِ[٢٦]، فلذا (يستدرجه) بأن يذكر له أمراً يسلمه، حتى يصغي إلى ما سيلقيه إليه.. فهذا مطابق لمعنى الاستدراج وكنهه وحقيقته، ويتضح جليا بالرجوع لتعريفهم (حسن الابتداء) ومنزلته

---

[٢٣] البحر المحيط، لأبي حيان: ٢٣٣/٥

[٢٤] تفسير الثعلبي، الكشف والبيان: ٣١٢/٤

[٢٥] منهاج البلغاء: ١٠٣/١

[٢٦] تفسير السراج المنير، للشربيني:

في استدراج إصغاء المخاطب.. قال ابن حجة الحموي: (وقد نبه مشائخ البديع على يقظة الناظم في حُسن الابتداء، فإنه أول شيء يقرع الأسماع ويتعين على ناظمه النظرُ في أحوال المخاطبين والممدوحين وتَفقد ما يكرهون سماعه ويتطيرون منه، ليَتجنب ذكره، ويختار لأوقات المدح ما يناسبها.

وخِطاب الملوك في حسن الابتداء هو العمدة في حُسن الأدب، فقد حُكي أن أبا النجم الشاعر، دخل على هشام بن عبد الملك في مجلسه، فأنشده من نظمه:

"صفراء قد كادت ولما تفعل ... كأنها في الأفق عين الأحول"

وهشام بن عبد الملك أحول، فأخرجه وأمر بحبسه.

وكذلك اتفق لجرير مع أبيه عبد الملك، فإنه دخل عليه وقد مدحه بقصيدة حائية أولها: "أتصحو أم فؤادك غير صاح"...فقال له عبد الملك: بل فؤادك...)[٢٧].

هذه الفنون الثمانية هي بعضُ ما استخرجته بالتتبع والاستقراء مما صرح النقاد والبلاغيون والمفسرون بأنه استدراج، أو أشار كلامهم إليه، لكنها ليست كل ما هو استدراج، لأن منها –كما قلنا– مالم يدرجوه صراحة فيه، وإن كانت منه عند التحقيق بلا

---

[٢٧] خزانة الأدب، ولب لباب العرب، لابن حجة الحموي: ٢١/١

شك، حتى التشبيه والاستعارة والكناية، وأمثالها، فإنما هي (في بعض صورها) استدراجات لطيفة إلى المقاصد والأهداف التي يراد إيصالها إلى المخاطب وإلزامه بها إلزاما رفيقا، بشرط أن يتحقق في التشبيهات وغيرها شرطا الاستدراج اللذان أشرت إليهما آنفا، وهما: شـــرط إرادة دفع التمنع أو المعارضة، في جدل وشك وتردد.. ، وشرط اللطف في ذلك.

وأشمل ما قيل من التسمية والاتساع في مفهوم (الاستدراج) ليشمل معظم فنون البلاغة –بالنحو المذكور– قول صاحب الطراز: (وهذا اللقب إنما يطلق على بعض أساليب الكلام، وهو ما يكون موضوعا لتقريب المخاطب والتلطف به والاحتيال عليه بالإذعان إلى المقصود منه، ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة، كما يحتال على خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات، والانتماء إليه بفنون الإفحامات، ليكون مُسرعا إلى قبول المسألة والعمل عليها، وكمن يتلطف في اقتناص الصيد فإنه يعمل في الحُبَّالة كل حيلة ليكون ذلك سبيلا إلى ما يقصده من الاصطياد، فهكذا ما نحن فيه، إذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنه يحتال بإيراد ألطف القول وأحسنه، فما هذا حاله من الكلام يقال له الاستدراج)[٢٨].

[٢٨] الطراز، للعلوي: ١٤٨/٢

وعبارته الأخيرة جامعة وشاملة للمفهوم، وهي قوله (ما هذا حاله من الكلام يقال له الاستدراج)..

وفيما لو تساءلنا عن السبب الذي منع العلماء من إطلاق (الاستدراج) على كل أبواب البلاغة وفنونها، ليكون بديلا أو مرادفا في المعنى لمصطلح (البلاغة والفصاحة)؟، فإن الإجابة عن هذا السؤال مشار إليها في كلام بعض البلاغيين ، ومضمونها أن البلاغة قد تقتضي أحيانا المواجهة والمجابهة بالكلام الصريح، وهنا يتوارى مفهوم (الاستدراج)، بل يمتنع؛ حيث تكون البلاغ الصريحة مقتضى الحال ومطلب الظرف الراهن، حتى وإن زعم ابن الأثير أن مدار البلاغة كلها على (الاستدراج) في نص نقلته عنه سابقا، جاء فيه: (وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه)

فقد كان يحي العلوي أكثر دقة وتوافقا مع مفهوم البلاغة ومقتضاها.. حين تنبه إلى أن من البلاغة ما لا يَحسن فيه الاستدراج، بل يجب فيه التصريح والمواجهة والإظهار والمبادرة والمباشرة، وقد تحدث بهذا وهو بصدد التفصيل في بلاغة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه؛ فبعدما ذكر مقتطفات من كلامه – رضي الله عنه– المبني على لطف الاستدراج وبلاغته في مكاتباته لمعارضيه والخارجين عليه، استدرك بالقول: (وله عليه السلام في غير هذا الموضع كلام فيه خشونة عظيمة، ومن ذلك ما قاله لعبد الله بن

عباس عند استخلافه إياه على البصرة: سَع الناس بوجهك ومجلسك وحلمك، وإياك والغضب فإنه طِيرة من الشيطان، واعلم أن ما قربك من الله بعدك من الشيطان والنار، وما باعدك من الله يقربك من النار والسلام)[٢٩]. فهذا ليس استدراجا، مع كونه كلاما بليغا معتمدا على المواجهة والمخاشنة التي اقتضاها المقام، والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.. فكل استدراج بلاغة، لكن ليس كل بلاغة استدراج.

ج: التعريف والحد:

سوف يكون من المتيسر تحصيل تعريف الاستدراج بعدما علمنا إشارات العلماء لمفهومه ودلالته، وأمثلتهم فيه وشواهدهم عليه..

فالاستدراج في اللغة : الأخذ بالتدريج مترلة بعد مترلة، هكذا قيل فيه ، لكنهم اختلفوا في مأخذه اللغوي؛ على وجوه.. فقيل هو من (الدَّرْجُ: كَفُّ الشَّيْءِ، يُقَالُ أَدْرَجْتُهُ وَدَرَجْتُهُ، وَمِنْهُ إِدْرَاجُ الْمَيِّتِ فِي أَكْفَانِهِ)[٣٠] ، وقيل (هُوَ مِنَ الدَّرَجَةِ، فَالِاسْتِدْرَاجُ: أَنْ يَخْطُوَ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَمِنْهُ دَرَجَ الصَّبِيُّ: إِذَا قَارَبَ بَيْنَ خُطَاهُ، وَأَدْرَجَ الْكِتَابَ: طَوَاهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَدَرَجَ الْقَوْمُ:

---

[٢٩] الطراز ، للعلوي: ١٥٣/٢

[٣٠] فتح القدير للشوكاني: ٣٠٩/٢

مَاتَ بَعْضُهُمْ في أثر بعض)[٣١]

وفي قولهم (إذا قارب بين خُطاه) ما يشير إلى العلاقة بالمعنى البلاغي، فإن الاستدراج الكلامي يكون بأسلوب دقيق الانتقال والتحول، كما يتحول الصبي بخطوته شيئا قليلا إلى التي تليها.

قال الشهاب الخفاجي: (الاستدراج الإدناء من الشيء درجة، وسيأتي تحقيقه في قوله تعالى: { سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [القلم:٤٤])[٣٢]، وهذه الآية الكريمة كانت مدار كلام معظم المفسرين عن الاستدراج بمعناه اللغوي، والشرعي، ومن ثم تطرق بعض منهم إلى مدلوله الاصطلاحي البلاغي.

وقد حكى الإمام البغوي تعريفه عن أهل المعاني فقال: (قال أهل المعاني: الاستدراج أن يتدرج إلى الشيء في خفية قليلا قليلا ، فلا يباغت ولا يجاهر، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه في المشي، ومنه درج الكتاب إذا طواه شيئا بعد شيء)[٣٣] .

وعند علي القاري في مرقاة المفاتيح: (هو إرخاء العنان مع الخصم في المجاراة ليعثُر حيث يراد تبكيته)[٣٤] ، فالسين والتاء في

---

[٣١] تفسير البغوي: ٢٥٥/٢

[٣٢] حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: ٣٤٦/١

[٣٣] تفسير البغوي: ٢٥٥/٢

[٣٤] مرقاة المفاتيح، لعلي القاري:

(استدرج) للطلب.

ويظهر أنه حتى المعنى البلاغي كان له نوع حضور في الاستعمال القديم، بل في العصر الجاهلي، فقد جرى استعماله في كلامه بمفهوم بلاغي،كقول الأعشى: (ليستدرجنك القول حتى تهرُّه). أي تقوله، يعني السر الذي كنت تخفيه وتمانع في إظهاره، يستدرجك قليلا قليلاا حتى تبوح به[٣٥]..

وأما حضوره في الاستعمالات القديمة باعتباره أسلوبا في المخاطبة، وليس مصطلحا لغويا أو بلاغيا.. فهو أكثر وضوحا، كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَتَهْجُوه ولَسْتَ له بكُفْءٍ ... فَشَرُّكُما لخيرِكما الفِداءُ

مع العلم لكلِّ أحدٍ أنه صلَّى الله عليه وسلَّم خيرُ خَلْقِ اللَّهِ كلِّهم

(وإنما هذا الكلامُ جارٍ على ما يَتَخاطَبُ به العربُ من استعمالِ الإِنصاف في محاوراتِهم على سبيل الفَرَضِ والتقدير ويُسَمِّيه أهلُ البيانِ الاستدراجِ وهو: أَنْ يَذْكُرَ لمخاطبهِ أمراً يُسَلِّمه، وإنْ كان بخلافِ ما يَذْكر حتى يُصْغَي إلى ما يُلْقيه إليه، إذ لو بدأه بما يَكْرَهُ لم

[٣٥] الكشاف، للزمخشري: ٣٩٥/١

يُصْغِ. ونظيرُه قولُهم: أَخْزَى اللَّهُ الكاذبَ مني ومنك)[٣٦]

وقد تفنن العلماء في تعريفه الاصطلاحي من جهات مختلفة، سواء أكان استدراجا شرعيا، أم بلاغيا أسلوبيا، كتعريفهم له بأن (يريد الشيء ويطوي عن صاحبه وجه القصد فيه)، فهذا جاء في سياق الكلام عن الاستدراج الإلهي للظالمين حتى يأخذهم على حين غرة منهم، لكنه أيضا يطابق أو يقارب المفهوم البلاغي له، وهذا قد يدل على إحكام دلالة هذا المصطلح على أي وجه كان استعماله.

والتعريف البلاغي الأسبق ظهورا واكتمالا لهذا الفن هو تعريف ابن الأثير، الذي ادعى أنه أول من استخرجه من القرآن الكريم، ولم يسبقه أحد إلى استخراجه منه، وهو ادعاء لم يعترض عليه احد ممن بعده! ، وعرفه بقوله: (وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال)[٣٧].

وهذا التعريف يقودنا للتفريق بين الاستدراج وبين ألفاظ أخرى تقرن به أو تحل محله في بعض الاستعمالات والإطلاقات عند بعض المفسرين والبلاغيين، وأبرزها ألفاظ: (المخادعة)، و(الكيد)، و(المغالطة)، و(التمويه).

---

[٣٦] الدر المصون، للسمين الحلبي: ١٨٣/٩

[٣٧] المثل السائر: ٢٠٥/٢

فأما لفظ (المخادعة) فرأيناه في كلام ابن الأثير، فقد جعل الاستدراج البلاغي مخادعة في الأقوال تقوم مقام مخادعة الأفعال، ولعل الوصف بالمخادعة يليق بمقام دون آخر، وذلك حينما يقع (الاستدراج) سبيل المجازاة بالمثل، أي مشاكلة الخداع بالخداع، فيكون على نحو قول الله تعالى {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ }[النساء:١٤٢]..

إلا أن ابن الأثير قد أطلق عليه لفظ (المخادعة) ابتداءً ومن غير سياق مجازاة على آية من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر، الآية: ٢٨]، حيث قال : (ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم بقوله "إن يك كاذبا فكذبه عائد عليه، وأن يَصْدق يصبكم بعض ما وعدكم به ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى)...ثم ختم بالقول: (وفيه من خداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به)[٣٨].

ومن وجهة نظري فأن تسميته (خداعا) –كما أطلقه ابن الأثير– غير مناسب ولا دقيق؛ لأنه ليس كل استدراج خداع، فقد

[٣٨] المثل السائر: ٢٠٥/٢

تستدرج أحدا لمعنى أو هدف صالح تريده له، من غير أن تخادعه في ذلك الاستدراج، لكنك تتأتَّي له من أحسن أبواب التلطف الكلامي البلاغي؛ من مثل ما سبق أن رأيناه من صور الاستدراج التي لا تتضمن أي خداع، كما في : حسن الابتداءات والمطالع، وحسن التقسيم، والالتفات، ونحوها، إذ لا خداع فيها غالبا؛ فتلخص بهذا أن مصطلح (المخادعة) ليس بديلا صالحا لمصطلح (الاستدراج).. ولعل ابن الأثير استخدمه من قبيل استعمال المقيد في المطلق، والخاص في العام، تجوُّزا.

وما يقال عن مصطلح (المخادعة) يقال مثله عن مصطلح (الكيد والمكايدة) الذي جاء في بعض كلامهم مصاحبا لمصطلح (الاستدراج)؛ كأنه بديل له، وليس بديلا عن التحقيق.

إلا أن بعض المفسرين كان أكثر دقة في وصف العلاقة بين المصطلحين بنحو لا يفسد على المصطلح الأصلي دلالته الدقيقة، حيث نصُّوا على أنه: سمي الاستدراج كيدا لأنه في صورة الكيد[٣٩]، وهذا إنصاف في التسمية؛ فهناك بون شاسع بين الاستدراج والكيد.

وأما مصطلح (التمويه) فالمقصود به عند أهل المنطق: حجب بعض الحقائق والمقدمات المنطقية، ففيه كذب؛ وليس كذلك

---

[٣٩] ينظر مثلا: الكشاف، للزمخشري: ٥٩٦/٤ ، ومفاتيح الغيب، للرازي: ٦١٥/٣٠، وتفسير أبي السعود: ١٩/٩

(الاستدراج)، وعن التمويه وما فيه من الكذب يقول حازم القرطاجني: (التمويهات تكون بِطَيِّ محل الكذب من القياس عن السامع، أو باغتراره إياه ببِناء القياس على مقدمات تُوهم أنها صادقة لاشتباهها بما يكون صدقا، أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه بالصحيح، أو بوجود الأمرين معا في القياس أعني أن يقع فيه الخلل من جهتي المادة والترتيب معا، أو بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب وإن كان إلى حيز الوضوح أقرب منه على حيز الخفاء بضروب من الإبداعات والتعجيبات تشغل النفس عن ملاحظة محل الكذب والخلل الواقع في القياس من جهة مادةٍ أو من جهة ترتيبٍ أو مِن جهة المادة والترتيب معاً)[٤٠].

بقي لدينا مصطلح (المغالطة) الذي اقترن أحيانا بالاستدراج، إلا أن شهاب الدين الخفاجي حسم الأمر بالاستدراك أنه قريب منها فحسب، وليس هو إياها؛ حيث قال: (..يستدرج الخصم حتى ينقاد ويذعن، وهو قريب من المغالطة وليس منها)[٤١].

وما ذلك إلا لأن (المغالطة) في المنطق والبلاغة عبارة عن: قياس فاسد، لا يفيد استنتاج اليقين في المحاججة، وهي أيضا ادعاء غير

---

[٤٠] منهاج البلغاء: ١٩/١

[٤١] حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: ٤٦/٤

صحيح قد يكون مبنيا على أسس وأدلة غير سليمة مما يقود إلى نتائج خاطئة، أو قد يستند إلى أدلة صحيحة ولكنه ينطلق منها إلى استنتاجات مغلوطة.[٤٢]

كانت هذه أبرز المصطلحات التي عثرت عليها مقترنة بمصطلح (الاستدراج)، وهي ليست مطابقة له، وإن شاركته في بعض دلالته وليس جميعها.. فبقي المصطلح فريدا ومتميزا في بابه البلاغي، وله شخصيته وكيانه المعتبر بين علماء هذا الفن، وكذلك علماء التفسير واللغة والمنطق.

بقي مما يتعلق بمفهوم الاستدراج وتعريفه أن بعض العلماء قصره على: التدرج بالمخاطب إلى صعودا به "الشر والهلاك" لقصد إيقاعه فيه، ليقع المستدرَج في شر أعماله واعتقاداته، لكن هذا القول لا يشمل كل صور الاستدراج، إذا الواقع أن الاستدراج استُعمل في الصعود بالمخاطب إلى "الخير"، كما استعمل في النزول به إلى الشر، وكلها ينطبق عليها المدلول العام للتدرج صعودا أو نزولا.. بل أضاف أبو السعود في تفسيره ما يُفهم منه معنى ثالث، وهو التدرج في الذهاب باستقامة إلى الشيء والمضي فيه قُدما، دون أن يَلزمه معنى الصعود أو النزول فحسب، وسيرد نص كلامه بعد قليل.

---

[٤٢] ينظر جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، الأحمد نكري: ٢٠٩/٣

ولعل مَن قصره على الصعود به إلى الشر أراد المعنى اللغوي، أو أرد بعض صور اللفظ واستعمالاته الشرعية خاصة، كما في قوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف:١٨٢]، قال ابن عطية: (والاستدراج هو : الحمل من رتبة إلى رتبة ، حتى يصير المحمول إلى شر وإنما يستعمل الاستدراج في الشر)[٤٣].

وفي تأكيد شمول الاستدراج لصورتيه صعودا إلى الخير، وهبوطا إلى الشر، قال أبو السعود: ({سَنَسْتَدْرِجُهُم} أي نستدينهم البتةَ إلى الهلاك شيئاً فشيئاً. و"الاستدراجُ " استفعالٌ من درَجَ إما بمعنى صعِد ثم اتُسِع فيه فاستُعمل في كُل نقلٍ تدريجيَ سواءٌ كان بطريق الصعودِ أو الهبوط أو الاستقامة، وإمَّا بمعنى مَشى مشياً ضعيفاً، وإما بمعنى طَوَى)

ورجح أبو السعود المعنى الأول وهو الصعود والنقل إلى أعلى درجات المهالك ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب، وجعل المعنيين الثاني، وهو الهبوط، والثالث، وهو الاستقامة، وكافة ما يتفرع عليها، محمولة على المعنى الأول على سبيل الاستعارة منه، فيكون الاستدراج مستعارا لكل (نقلٍ تدريجي من حال إلى حال من الأحوال الملائمةِ للمنتقل الموافقةِ لهواه بحيث يزعُم أن ذلك ترقٍّ في

[٤٣] المحرر الوجيز، لابن عطية: ٦/٤٢٠

مراقي منافعِه مع أنه في الحقيقة تردَ في مهاوي مصارعِه)[٤٤].

[٤٤] تفسير أبي السعود: ٢٩٧/٣

المبحث الثاني :الأهمية والأثر

أ-بلاغة الاستدراج:

سبق قول الألوسي: (الاستدراج مما تتراكض فيه خيول المناظرين)[٤٥]،إلا أنه في الوقع ليس مقصورا على المناظرين لينتفعوا به هم وأصحاب الجدل، فقد رأينا المتنبي يستل به ما وقر في نفس سيف الدولة من التشاؤم لما سقطت خيمته، حتى سلَّاه عن ذلك، بل أحال الأمر إلى كرامة ومحمدة له، عن طريق الاستدراج اعتمادا على ماسماه البلاغيون (حسن التعليل) أي: (أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي بحيث لا يكون علة له في الواقع)[٤٦].

فالاستدراج يتحقق بأي أسلوب من أساليب البلاغة يناسبه، ولو لم يكن أسلوبا جدليا أو حواريا، من نحو ما ذكرنا سابقا كحسن الابتداء، والالتفات، وحسن التخلص، والتشبيه، وغيرها، كما يحسن في كل مقام يستدعيه ويقتضيه؛ جدليا كان، أو غيره.

وعن مدى الشمول والسعة الذين يتمتع بهما اسلوب الاستدراج قال ابن الأثير (إذا حُقق النظر فيه عُلم أن مدار البلاغة كلها عليه، لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني

---

[٤٥] روح المعاني، للألوسي: ٦/ ٣٩٤

[٤٦] أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم: ٤٦٧

اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها)[٤٧].

ومن أوضح الدلائل على أثر الاستدراج وبلاغته وأهميته كثرة المحمول عليه من الأمثلة في القرآن الكريم، والحديث الشريف، وغيرهما، فالقرآن الكريم يمهد به طريق الحق، ويستدني به إصغاء المخاطب، كما يقطع به الطريق على المعاند والمكابر حتى يرضخ للحق؛ فإما أن يذعن له ويرضخ ويتابع، أو تقوم عليه الحجة التي لا مفر له منها بعد أن يوقعه الاستدراج البليغ في موقع المقيد بين خيارين لا ثالث لهما، أو بين حجج لا محيد له عنها؛ كما نراه في الاستدراج عن طريق (سوق المعلوم مساق غيره)، على نحو ما في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [سبأ:٢٤]، وكما في قول صالح عليه السلام لقومه: {يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ}[هود:٦٣] قال الرازي في بيان الاستدراج بهذا الأسلوب، وبلاغته: (ورد بحرف الشك ، وكان على يقين تام في أمره، إلا أن خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب إلى القبول ، فكأنه قال: قدِّروا أني على بينة من

[٤٧] المثل السائر: ٢٠٥/٢

ربي ، وأني نبي على الحقيقة ، وانظروا أني إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره فمن يمنعني من عذاب الله ، فما تزيدونني على هذا التقدير غير تخسير!)[٤٨].

ومما عني به المفسرون وفصلوا الكلام في أسرار الاستدراج الوارد في أسلوبه الآيات التي ذكرت قصة إبراهيم مع قومه، وتدرجه معهم في التعريف بإلهه الحق المبين، حيث لا الكوكب ولا القمر ولا الشمس يستحق أن يكون معبوده، وكل منها يأفل أو يغيب أو ينكسف.. فلم يبق سوى إله واحد هو الله تعالى مستحق للعبادة دون ما سواه ؛ فإنه –كما قال النيسابوري–(لو صرح بالدعوة لم يقبلوا قوله).. فالتصريح مواجهة ومجابهة، وليس كل مقام يحسن فيه ذلك، فلأجل هذا(مال إلى الاستدراج وذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم مع أن إبراهيم كان مطمئنا بالإيمان فكان بمنزلة المكره على كلمة الكفر حيث لم يجد إلى الدعوة المأمور بها طريقا سوى ذلك).

ولأهمية هذا الاستدراج البليغ مع ما فيه من ظاهر التعارض مع صدق الأنبياء مضى النيسابوريُّ إلى تأصيل جواز هذا الأسلوب شرعا، إذا كانت المصلحة متحققة فيه دون أسلوب المصادمة

---

[٤٨] التفسير الكبير، للرازي: ١٨ /٣٨٦

والمواجهة، فقال: (وإذا جاز ذكر كلمة الكفر لمصلحة تعود إلى شخص واحد لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ} [النحل: ١٠٦] فلأنْ يجوز ذكرها لتخليص جَمٍّ غفير من الكفر والعقاب الأبدي أولى. قالت العلماء: إن المكره على ترك الصلاة حتى لو صلى قُتِل.. استحق الأجر)[٤٩].

وليس هذا هو المقام الوحيد الذي لجأ فيه نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى هذا الأسلوب؛ إذ كان قومه عتاة طغاة، وكان هو أوَّها حليما لطيفا بقومه رحيما، فلذلك كان أسلوب اللطف والاستدراج ملائما لطبعه الذي طبعه الله عليه، وملائما لاتقاء قسوة عامة قومه الذين كشروا عن أنياب الفضاعة النكراء في محاولتهم حرقه بالنيران الهائلة تعذيبا وتنكيلا، ولم يكفهم قتله فحسب.. فمثل هذه الواقعة جاء في قوله تعالى: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ} [الصافات: ٨٨] قال النيسابوري: قال المفسرون: (وذلك أنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على الحوادث المستقبلة فوافقهم إبراهيم على هذا الطريق في الظاهر مع إنه كان بريئا عنه في الباطن ليتوصل بذلك إلى كسر الأصنام)[٥٠].

---

[٤٩] تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان): ١٠٧/٣

[٥٠] المرجع السابق..

فهذا الاستدراج من أفضل وسائل الدعوة والتربية والتوجيه، لكونه يتجنب سبيل المواجهة وأسلوب المجابهة إلى طريق (الملاطفة في النصح بكلام منصف غير مشتط مشدّد)[٥١] ، فهذا من أوضح الدلائل على بلاغة هذا الأسلوب.

كما أن من بلاغته أنه يبعث المخاطب على التفكر والتأمل والتدبر ومراجعة المواقف والاعتقادات بتأمل وإنصاف.. أكثر مما يبعثه إليه سبيل المواجهة والمصارحة، كقوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد:٣٣]، وفي بيان بلاغة الاستدراج سلك الإمام شرف الدين الطيبي سبيل التفصيل في الكشف عن وجوه الاستدراج البليغ الباعثة على التفكر في حالهم وضلالهم، فاستخرج في الآية ستة وجوه كلها تعزز جانب الاحتجاج عن طريق الاستدراج اللطيف لهم إلى الحق.. ولا تجابههم به أو تثير ردة فعل المعارضة لديهم، وهي وجوه بلاغية تمس جوانب اختيار اللفظ والتركيب والصورة، فقال: (في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان.

---

[٥١] حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: ٤٦/٤

أولها: {أفمن هو قائم} الخ احتجاج عليهم وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لها.

ثانيها: {وجعلوا لله شركاء} وفيه وضع المظهر موضع المضمر للتنبيه على أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه.

ثالثها: {قل سموهم} أي عيِّنوا أسماءهم فقولوا فلان وفلان؛ فهو إنكار لوجودها على وجه برهاني، كما تقول: إن كان الذي تدعيه موجوداً فسمِّه، لأن المراد بالاسم العلم.

رابعها: {أم تنبئونه بما لا يعلم}، احتجاج من باب نفي الشيء، أعني المعلوم بنفي لازمه وهو العلم وهو كناية.

خامسها: {أم بظاهر من القول} احتجاج من باب الاستدراج، والهمزة للتقرير؛ لبعثهم على التفكير، المعنى أتقولون بأفواهكم من غير روية وأنتم ألبَّاء فتفكروا فيه لتقفوا على بطلانه.

سادسها: التدريج في كل من الإضرابات على ألطف وجه، وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها)

ولم يجد الإمام الطيبي أبلغ من أن يقول في تلخيص بلاغة هذه الاستدراج في الاحتجاج: لقد كان هذا (الاحتجاج المذكور منادياً

على نفسه بالإعجاز وأنه ليس من كلام البشر)[٥٢]

ولمثل هذه البلاغة والبراعة والتأثير شاع الاستدراج في الاحتجاج على ألسنة الأنبياء وفي أساليبهم، وحكاه عنهم ربنا تعالى في القرآن الكريم في مواضع كثيرة..

ثم كان في كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من هذا الأسلوب الجم الغفير من الشواهد والأمثلة والنماذج – سيأتي ذكر بعض منها– في مقامات وصور مختلفة، على مدى زمن دعوته صلى الله عليه وسلم في مكة و المدينة، قال العلوي:(ولا شك أن له صلى الله عليه مع الكفار من عبدة الأوثان والأصنام وغيرهم من أهل الكتب كاليهود والنصارى مُلاطفة في حسن الاستدراج ولين العريكة، والتهالك في دعائهم إلى الدين، والإمعان في الانقياد له.. شيء كثير لا يحصر عدده، ولا يتجاوز أمده)[٥٣]..

كما شاعت العناية بفنون الاستدراج البليغ في أساليب الحكماء كافة من المربين والدعاة، وغيرهم، ومنهم الإمام علي رضي الله عنه، الذي كان موصوفا بأعلى درجات البلاغة والذكاء والحنكة في الخطاب والمعاملة، وقد ذكر الشهاب الخفاجي: (مما روي عن عليّ

---

[٥٢] نقله عن الطيبي في التفسير الوسيط: ٤٨٨/٧

[٥٣] الطراز، للعلوي: ١٥١/٢

رضي الله عته أنه قال لبعض من تشكك في البعث والآخرة: "إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة فقد تخلصنا جميعاً وان لم يكن الأمر كما تقول فقد تخلصنا، وهلكتَ" فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده، وهذا الكلام وإن خرج مخرج الشك فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه وقلة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه مع أنّ المناظِر على ثقة من أمره، وهو نوع من أنواع الجدل)، ثم قال الشهاب: (تنبيه: هذا النوع يسمى استدراجاً)[٥٤].

وقد كثر هذا الفن والأسلوب في كلام الإمام علي رضي الله عنه؛ فقد كان له عليه السلام من الاستدراجات الرائقة –كما قال العلوي– خاصة مع معاوية [رضي الله عنه]، وفرق الخوارج وغيرهم ممن نكص عن الإسلام على عقبيه، ولغيرهم من أصحابه من العنايات الحسنة ما يشفى غليل الصدور، ويوضح ملتبسات الأمور)

وأما عن السبب في ركون الإمام إلى هذا الأسلوب وعنايته به، إلى حد البراعة فيه وحتى صار مضرب المثل في إتقانه.. أنه (بُلي بحرب أهل القبلة وخروجهم عليه، فكان حريصا على إبانة الحجة، وإيضاح المحجة، بالأقوال اللطيفة، والخطابات الرقيقة، إبلاغا

[٥٤] حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: ٤٦/٤

للحجة، وقطعا للمعذرة)[٥٥].

ب- مهارات توظيف الفن في الإنشاء وفي التلقي:

فمن ينشئ كلاما مبنيا على الاستدراج يحتاج إلى توفية حق المقام ومتطلبات الحال من كل ما يساعده على استدراج المخاطب بألطف الأساليب البلاغية وأقواها أيضا، كما أن من يدرس أسلوبا مبنيا على مهارات الاستدراج يحتاج إلى تلمس دقائق المهارة فيها ولُطف المأخذ الذي احتوى عليه النـــــص، ويفصل في ذلك ويوفيه حقه.

وإلى هذه الاستراتيجية الإبداعية دعا ابن الأثير صراحة لا تلميحا، حيث قال في مطلع كلامه المفصل عن (الاستدراج) : (والكلام فيه وإن تضمن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النّكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم)[٥٦].

وهذا الكلام واضح في أهمية ما ذكرناه من العناية بالدراسة الدقيقة للوجوه التي يقوم عليها الاستدراج في النص واستقصائها من كافة جوانبها الإفرادية والتركيبية والتصويرية والبديعية.

---

[٥٥] الطراز: ١٥٥/٢

[٥٦] المثل السائر: ٦٤/٢

وقد كان لابن الأثير لفتات تطبيقية عميقة في هذا الجانب، وهو -كما قال عن نفسه- (استخرجه -يعنى الاستدراج- من كتاب الله تعالى)، وقد ذكر له شواهد من القرآن الكريم، وتتبع وجوه البلاغة الاستدراجية فيها، ومنها وقفاته عند قول الله تعالى: {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}[غافر٢٨] قال: (ألا ترى ما أحسن مأْخذ هذا الكلام وألطفه) فإن هذا الرجل المؤمن الداعي قومه إلى الصراط المستقيم قد (أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم) (وفي هذا الكلام من حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك) ثم شرع في بيان تراكيب الاستدراج وصوره في (حسن التقسيم) فيما حكاه القرآن الكريم عن هذا الرجل المؤمن ، وفصل فيها وجوها كثيرة، وأنا أقتطف بعض تفصيلاته بعد أن أدرجها تحت ترقيمات توضيحية بالنحو التالي:

١- أنه اختار {بعض} بدلا من "كل الذي يعدكم به"، (لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة في القول ... ليكون أدعى إلى سكونهم إليه).. (ليهضمه بعض حقه في ظاهر

الكلام؛ ليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا، فضلا عن أن يتعصب له).

٢- أنه قدم الكاذب على الصادق في: { وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ} (كأنه بَرْطلهم [سلّم لهم] في صدر الكلام بما يزعمونه لئلا ينفروا منه).

٣- صيغة التعريض المنصِف المستدرِج، في قوله تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}(ولو كان مسرفا كذابا لما هداه الله للنبوة، ولا عضده بالبينات، وفي هذا الكلام من خداع الخصم واستدراجه ما لا خفاء به).

وتوّج ابن الأثير هذه الوقفات البلاغية بالقول إن ترتيب الآية ونظمها ولفظها (قد تضمن من اللطائف الدقيقة ما إذا تأملته حق التأمل أعطيته حقه من الوصف)[٥٧]. ونفهم من هذا تأكيدا جديدا على تأكيدات كثيرة أن الاستدراج منظومة متكاملة وتركيبة مكثفة من الاختيارات اللفظية والصيغ البنائية التي تتواشج في النص لتتسلل بالمعنى إلى باطن عقل المخاطب وعميق عاطفته وتستدرجه ليذعن ويرضخ إن كان معارضا، أو يتقبل ويتحفز إن كان موافقا،

[٥٧] المثل السائر: ٦٥/٢

أو يستعيد صوابه إن كان فقده لعارض طرأ، أو أزمة ألمت به.

وقد ذكر ابن الأثير أنموذجا آخر من القرآن الكريم للتحليل والاستنباط المتعمق في وجوه الاستدراج التي يُبنى عليها الكلام، وعقب عليهما بالقول: (وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس لا سيما في مخاطبات الأنبياء صلوات الله عليهم للكفار، والرد عليهم، وفي هذين المثالين المذكورين ههنا كفاية ومَقنع).

والأنموذج الثاني[٥٨] الذي ذكره ابن الأثير هو قول الحق سبحانه وتعالى، في حكاية نصح إبراهيم عليه السلام لأبيه، في كلام –وصفه ابن الأثير مُحقّا– بأنه (يهز أعطاف السامعين، وفيه من الفوائد ما أذكره، وهو أنه لما أراد إبراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل، رتَّب الكلام معه في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخُلق الحسن، مستنصِحا في ذلك بنصيحة ربه) قال تعالى: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ

[٥٨] السابق..

الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)} [مريم: ٤١-٤٥]، وَوَقَفَ ابن الأثير واستَوقف مع بدائع البلاغة المستدرِجة في ألفاظ الآيات وتراكيبها العظيمة، ويمكننا ترتيبها واختصارها على النحو التالي:

١- أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام استدرج أباه بأن طلب منه – أولا- العلة في خطئيته طلبَ منبِّهٍ على تماديه، موقظٍ من غفلته؛ فإن من يعبد من دون الله لو كان حيا قادرا لكان عارا على من عبده لكونه عبد مخلوقا وترك خالقه، فكيف بمن اتخذ لنفسه معبودا جمادا لايسمع و لا يبصر ولا يغني عند شيئا!

٢- ثنَّى بدعوته إلى الحق مترفِّقا به، فلم يَسِم أباه بالجهل المطلق، ولا نَفْسَهُ بالعِلم الفائق، ولكنه قال: إن معي لطائف من العلم وشيئا منه فاتبعني أُنجِك من أن تَضِل.

٣- ثَلَّث ذلك بتشبيطه أباه عما كان عليه ونهيه، وألغى ذكر معادة الشيطان آدمَ وذريته في نصيحته أباه؛ لأنه –لإمعانه في الإخلاص– لم يذكر من جنايتي الشيطان إلا التي تختص بالله، وهي عصيانه واستكباره ..

٤- ربَّع ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة، فلم يصرح بأن العقاب لاحق به، ولكنه قال: إني أخاف أن يمسك عذاب.

٥- نكَّر العذاب ملاطفةً لأبيه.

٦- صدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله {يا أبتِ}؛ توسلا إليه واستعطافا، وذلك بخلاف ما أجابه به أبوه، فإنه قال: {أراغب أنت عن آلتهي يا إبراهيم}، فأقبل عليه بفظاظة الكفر، وغِلَظ العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل قوله {يا أبتِ}،وقَدم أبوه الخبر على المبتدأ في قوله {أراغب أنت}، لأنه كان أهم عنده، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته).

ثم ختم ابن الأثير النماذج بأنموذج ثالث، لكنه إنشائي، اختاره من مأثور بلاغة البلغاء المشاهير، وهو عبارة عن (حديث تفاوض فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما ومعاوية بن أبي سفيان في أمر ولده يزيد)..إلخ، ورأى ابن الأثير في تراكيب كلام معاوية رضي الله عنه من مهارات البلاغة الاستدراجية أمورا أثارت شديد إعجابه ، فقال: (وهذا كلام من معاوية كلما أمررته بفكري عجبت من سداده ، فضلا عن بلاغته وفصاحته)، ثم مضى في تفصيل وجوه الاستدراج والتلطف البديع البليغ في كلام معاوية رضي الله عنه.

وبمثل هذا المنهج في التفصيل والاستنباط البليغ تعامل صاحب الطراز عند دراسته بلاغة الاستدراج في الرسالة التي بعثها النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحبار اليهود حيث احتوى نصها على

تركيبات استدراجية بارعة، ومنها ما يلي[٥٩]:

الأولى: تصدير الرسالة بالثناء على موسى وهرون –عليهما الصلاة والسلام– نبيي بني إسرائيل، ليعلموا أنه ليس عدوا لهما ولا منازعا لأنبيائهم، فهذا هو الاستدراج باسلوب(حسن الابتداء).

الثانية: في قوله صلى الله عليه وسلم: (يامعشر أهل الكتاب) نداء تشريف ورفعة لمكانهم، يلفت انتباههم إليه ويستدني قلوبهم.

الثالثة: الاحتجاج عليهم بما لا سبيل إلى إنكاره من كونه مكتوبا عندهم في التوراة، ثم ذكر وصف التوراة له ليذعنوا بالتصديق.

الرابعة: أنه أطنب بذكر وصف أصحابه الموجود عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا (إطناب بليغ)، يبدي للخصم تفاصيل ما كان يحاول إخفاءه وجحده ليعلم أن لا سبيل إلى ذلك.

كما تضمنت الرسالة النبوية تفاصيل أخرى تزيد الإطناب البليغ فيها وتبرزه؛ وأولها:(المنة عليهم بإنزال التوراة..، وثانيها: بإطعامهم المن والسلوى، وثالثها: فلق البحر وشقه حتى جاوزوا فيه وأنجاهم من عدوهم بذلك).

ولم يكن ابن الأثير والعلوي وحدهما من نهج طريق التفصيل

---

[٥٩] الطراز، للعلوي: ١٥٢/٢

والتدقيق في استنباط وجوه الاستدراج البليغة، لأننا نجد مثل ذلك عند بلاغيين آخرين ومفسرين أيضا ، وكلها تؤكد ما قلناه في أول الكلام أنه لا يمكن الكشف عن بلاغة الاستدراج في النص بالنحو الشافي والكافي إلا بتقليب وجوه النظر في مفرده ومركبه، وظاهره وباطنه، ومقارنة ما استعمل بما لم يستعمل، بنحو ما رأيناه من التفاصيل في النماذج الثلاثة السابقة، وكما نراه في وقفة لا بن عاشور مع التقديم الاستدراجي في قول الله تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ} [هود:٣٥]، قال: (تقديم {عليَّ} مؤذن بالقصر، أي إجرامي عليَّ لا عليكم، فلماذا تُكثرون ادعاء الافتراء كأنكم ستؤاخذون بتبعتِهِ، وهذا جارٍ على طريقة الاستدراج لهم والكلام المنصِفِ)[٦٠]

ج- مقامات الاستدراج:

لايوجد حسب بحثي واطلاعي من جمع هذه المقامات والأغراض وسلكها في نظام واحد، ولكنني استنبطتها من كلامهم هنا وهناك على النحو التالي، وبطبيعة الحال فما أذكره منها ليس كل المقامات والأغراض، ولكنه مِن أهمها:

الأول من مقامات الاستدراج وأغراضه البلاغية: استدراج

[٦٠] التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٦٤/١٢

الخصم إلى إثبات بُطلان دعواه بإدخال الشك عليه فيها وزعزعة قناعته بإيراد الاحتمالات المستوفية لبطلانها، ليدرك ذلك البطلان إدراكا ذاتيا قلبيا، بعد أن يُشركه معه المتكلم في استنباط النتائج كما فعل إبراهيم – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم – في أكثر من مقام مع قومه فيما أنكروه من الوحدانية والربوبية لله تعالى، وكما في بعض رسائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال ابن الأثير:(وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس، لاسيما في مخاطبات الأنبياء صلوات الله عليهم للكفار، والرد عليهم)[٦١].

ومن أمثلة ذلك أن يأتي الاستدراج بطريق التعريض للمخاطب في أمر ينكره، أو يراد تبكيته فيه، قرر ذلك الإمام شرف الدين الطيبي وشرحه عند الكلام على سؤال الله تعالى لنبيه عيسى عليه الصلاة والسلام: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة:١١٦]، (فإن المجني عليه إذا سُئل بمحضر الجاني، ونُسبت

[٦١] المثل السائر: ٦٦/٢

الجناية إليه دون الجاني دون الجاني، بعث ذلك الجاني على التفكّر في حاله وحال المجني عليه. فيرى براءة ساحته، وأنه هو المستحق للعقاب والعذاب. وهذا استدراج على طريق التعريض، وهو أبلغ من التصريح. والمراد بالاستدراج سلوك طريق توصل إلى المطلوب بسؤال غير المذنب ونسبة الذنب له. حتى يبين من صدر عنه ذلك. كما سئل عيسى دون الكفرة، وهو فن من البديع، بديع)[٦٢] .

والثاني من مقامات الاستدراج وأغراضه البلاغية: (الترغيب في تحصيل الفعل والاستدراج إلى تحصيله)[٦٣] . كما فعل إبراهيم عليه السلام مع أبيه في كلام (يأخذ بمجامع القلوب في الاستدراج والإذعان والانقياد بألطف العبارات وأرشقها)..[٦٤]، وذلك في قوله المحكي عنه في القرآن الكريم: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً } الآيات ٤٢-٤٥من سورة مريم، وقد رأينا أن فنونا بلاغية عديدة تظاهرت فيما بينها وتظافرت لتحقيق أبلغ درجات الاستدراج؛ ومنها حسن الابتداء والمطالع، وبراعة التخلص، وحسن التشبيه والاستعارة، ولطف التعريض والكناية، وغيرها مما يماثلها من أبواب البلاغة وأساليبها.

---

[٦٢] حكاه الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي: ٣٢٦/٨

[٦٣] التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٥١/٣

[٦٤] الطراز، للعلوي: ٢/ ١٤٩

وقد يتأتى هذا الغرض –أي الاستدراج إلى تحصيل الفعل والتزامه– بحسن التعليل ولطف التبرير، كما سبقت الإشارة إليه مرارا؛ كما قصة اعتذار المتنبي لسيف الدولة عن سقوط خيمته، فاستدرجه بحسن التعليل إلى تحصيل التفاؤل والأخذ به، والإعراض عن التشاؤم وخواطره.

وقد استدرج الأنبياء أقوامهم من عبدة الأوثان والأصنام، وغيرهم من أهل الكتب كاليهود والنصارى، واستلطفوهم بالأساليب المختلفة والمتنوعة– إلى اتباع الحق والتزامه.

وأيضا فعل أنبياء الله الكرام مثل ذلك الاستدراج مع أتباعهم من المؤمنين لحثهم على فعل أمر صالح، أو الثبات عليه، أو الاستزادة منه، أو كل تلك الأغراض والدواعي الدعوية، وقد اقتبس العلوي من السنة النبوية نماذج لهذا الغرض والمقام الذي يكثر فيه فن الاستدراج ، ونقل منها الكتاب الذي حكاه ابن هشام في سيرته عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كتبه إلى أحبار اليهود، وقد ذكرته آنفا نقلا عن العلوي، وعقَّب عليه بقوله: (فلينظر الناظر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من لطيف المحاورة وحسن الاستدراج المزيل للأحقاد والضغائن، والمؤثر في إزالة السخائم عن القلوب)، وقال: (فانظر إلى ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الاستدراج الحسن، واللطف المستحسن، والبسط الذى يؤنس

القلوب عن نفارها، ويكسبها الإقرار بعد إنكارها)[٦٥].

آليات المهارة في فن الاستدراج:

هذا مبحث استلطفت الوقوف عنده في ختام هذا البحث، لكونه يبرز تنوع العوامل المساعدة لتحصيل مهارات الاستدراج البلاغي والبراعة فيه ، كما يبرز قدره الرفيع في عيون أهل البلاغة والتفسير والأدب، وكيف أنهم رأوا فيه منية غالية ودرجة سامية تشرئب إلى نيلها أعناق أهل البلاغة والبيان، بعد أن تيقنوا ما فيه بليغ الأثر في بنية الخطاب أولا، وفي التلقي لدى المخاطب تاليا.

وقد برزت لي إشارات قيِّمة من كلامهم في مواضع متفرقة ترشد –عند الأخذ بها– إلى طريق إتقان الاستدراج البليغ في المخاطبات، فالتقطت منها جملة من الدلائل إلى مكان الإتقان والبراعة في هذا المطلب البلاغي الأسلوبي، وهي كالتالي:

١– يشير كلام ابن الأثير إلى أن مُدارسة الأمثلة والشواهد المحتوية على فنون الاستدراج هي طريق مهم إلى البراعة فيه، فيقول: (وقد ذكرت في هذا النوع ما يُتعلم منه سلوك هذه الطريق)[٦٦]، فالطريق إليه هو التعلم والدراسة. ويدخل في التعلم

---

[٦٥] الطراز، للعلوي: ١٥٢/٢

[٦٦] المثل السائر، لابن الأثير: ٦٤/٢

معرفة البلاغة بأبوابها وفنونها معرفة تكفي المبدع ليختار منها الأسلوب اللطيف في الموقع الذي يقتضيه، كما تكفي الناقد ليفحص من خلالها وجوه الاستدراج البليغ وأثره في النص والمتلقي، كما يتم هذا التعلم ويكتمل بِتَعلم عِلمٍ آخر أو علوم متخصصة معرفة نفسيات المخاطبين وشخصياتهم، وتمييز وجوه التعامل مع كل منها.

٢- يشير حازم القرطاجني إلى وسيلة أخرى للمهارة في (فن الاستدراج البلاغي)، والحنكة في تحقيق مطالبه واستيفاء مكوناته الأسلوبية، وهي وسيلة التدرب والتمرن على أساليبه وألوانه إلى أن يعتاد عليها المتدرب والمتعلم وترسخ في طبعه ، أي (اعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء مَّا على أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها)[٦٧]. وأظن كلامه هذا ينطبق أكثر ما يكون في الاستدراجات (الكاذبة)، إذ كان سياق كلامه عنها في الأصل، فقد كان يقول إن الاستدراجات الكاذبة ربما تكون من طبع الشخص وتكوينه وخلقته، وربما تتكون لديه بالتدرب عليها.. ثم جاء بالكلام السابق ليدل على أنه يمكن تعلم (الاستدراج

[٦٧] منهاج البلغاء، لحازم القرطاجني: ١٩/١

البليغ الكاذب) بالاعتياد والدربة والتقليد لأهله.

إلا أنه لا يمكننا قصر هذه الطريقة على الاستدراجات الكاذبة وحصرها عليها، بل تُعين كذلك في الاستدراجات الصادقة، كمن يتدرب على مهارات الاستدراج التربوي والدعوي وغيرها بالتأمل في كلام الأنبياء مع أقوامهم حيث تفننوا في صياغة الكلام المعين على استدراجهم واستدنائهم إلى الحق الذي يدعونهم إليه.

فمن الطبيعي والمعترف به أن التدريب على الشيء وحمل النفس عليه لفترة طويلة يورث المهارة فيه غالبا، لاسيما وأن مهارات الأساليب الاستدراجية البليغة ممكنة الحصول وميسرة لمن ألزم نفسه بها زمناً حتى يتقنها وتصير جزءا من شخصيته البلاغية.

وفي هذا السياق تحدث العلوي عن تدريب الرسول صلى الله عليه وسلم لنفسه قبل الهجرة ثم بعدها على لطيف الاستدراج وبليغه، حتى استحكم في طبعه صلى الله عليه وسلم، بعد توفيق الله له في ذلك.. قال العلوي بعدما حكى نماذج من بليغ الاستدراج النبوي للمشركين والمعارضين إلى الإيمان به والتصديق برسالته: (ثم أقول: لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بمكانٍ من الملاطفة وحُسن الحجاج قبل الهجرة بالمشركين من أهل مكة وغيرهم، من سائر القبائل، ثم ما كان منه من الملاطفة بعد الهجرة

مع اليهود؛ بني قُريضة وبني النضير، حتى هلك من هلك عن بينة وحَيَّ مَن حَيَّ عن بينة)[٦٨]

٣-ومما أشار إليه البلاغيون من وسائل المهارة في هذا الأسلوب والبراعة فيه التعود على استحضار (البدائل الأسلوبية) الخالية منه، ومقارنتها بما هو مشتمل عليها، أي المقارنة في الشكل والأثر بين كل منها.. يتم ذلك عند افتراض بدائل خالية من مهارات الاستدراج في مقابل الأساليب الواردة به، ثم تصور الأثر المختلف وتخيل النتيجة المعاكسة حين يخلو الكلام من لطيف الاستدراج.

وقد رأيت عند العلوي اهتماما عاليا بهذه المقارنات البلاغية الافتراضية، التي تشير إلى الفرق، بل تكشفه وتجليه؛ حيث إنه كان يورد نصا مماثلا -من حيث المعنى والمقاصد- للنص الاستدراجي ، لكنه خال من تركيبات الاستدراج وبنائه.. يورده ثم يقول: انظر الفرق، وتأمل الأثر.. صنع العلوي ذلك مع معظم الشواهد والأمثلة التي أوردها من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأقول الإمام علي رضي الله عنه، وسائر البلغاء، وكان يعقب على كل مقارنة بتأكيد الفرق وإظهار الاختلاف.. ومن

---

[٦٨] الطراز، للعلوي: ١٥٢/٢

ذلك أن قارن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحبار اليهود، وما فيه من الاستدراج البليغ، بنص آخر افتراضي، خال من مهارات الاستدراج، وأكد الفرق بينهما في الدلالة والأثر، فأما كتاب النبي صلى الله عليه وسلم، فهو قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه، والمصدق لما جاء به موسى، ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم: { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ }الآية [الفتح:٢٩]، وانى أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله، إلَّا أخبرتمونا هل تجدون فيما أُنزل عليكم أن تؤمنوا بمحمد، وإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كُره عليكم؛ قد تبين الرشد من الغى، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه).

فبعد أن بين العلوي بلاغة الاستدراج في هذا النص بيانا مفصلا، خطا خطوة أخرى نحو المقارنة التي رآها تزيد في وضوح الفرق وجلائه بين أسلوبين؛ أحدهما معتمد فيه على فنون الاستدراج وبلاغته وبراعته ومهاراته، والآخر قائم ومؤسس على أسلوب المواجهة والمقارعة في هذا المقام، قال العلوي: (ولو قال في كتابه:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الناسخ لشريعة موسى بن عمران، والماحي لآثارها، والطامس لأعلامها، إلى معشر اليهود الذين خالفوا وبدلوا أحكام التوراة وكذّبوا بما جاء من عند الله. وخانوا عهد الله، واشتروا بآياته ثمنا قليلا، أنشدكم بالله الذى مسخكم قردة، وأنزل بكم نكاله، وضرب عليكم الذلة والمسكنة، وأهانكم بالتزام الجزية، وأقعدكم مقاعد الهوان، حيث جحدتم نبوتي، وأنتم تعرفون بها حقيقةً لا لبس فيها، كما تعرفون أبناءكم"- لكانت تنفيرا ولم يكن استدراجا، ولصار لجاجا أَحق من أن يكون تقريبا وحجاجا) .

وكان أبو حيان قد سَبقه إلى مثل هذه المقارنات في تفسيره البحر المحيط، حيث عمد أحيانا إلى إبراز الفرق بين ما هو مبني على حسن الاستدراج وما هو خال منه، وبَيَّن من خلال المقارنة والمقابلة والموازنة أن أسلوب المواجهة الخالي من الاستدراج قد لا يفي بالغرض في بعض المقامات والأحوال، بل قد يؤدي لعكس المراد، فيزيد في النفور والتكذيب والمعارضة، وإلى هذا أشار كلام أبي حيان عند قول الله تعالى: {قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ} [هود:٢٨]،حيث ذكر أن الله جل جلاله (لما حكى شُبههم في إنكار نبوة نوح عليه السلام وهي

قولهم: {مَا نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا} [هود:٢٧]– ذكر أن المساواة في البشرية لا تمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، ثم ذكر الطريق الدال على إمكانه على جهة التعليق والإمكان، وهو متيقن أنه على بينة من معرفة الله وتوحيده، وما يجب له وما يمتنع، ولكنه أبرزه على سبيل العرض لهم "والاستدراج" للإقرار بالحق، وقيام الحجة على الخصم، ولو قال: "على أني على حق من ربي" لقالوا له كذبت!).

خلاصة وخاتمة

هذا البحث حاول أن يضع النقاط على الحروف فيما يخص مصطلح (الاستدراج)، إذا هو كما قلت موهم وعمومي إلى حد كبير حتى زعم ابن الأثير أن مدار البلاغة كلها عليه، إلا أننا رأينا بالتتبع أنه المصطلح ينطبق بالفعل على أي فن بلاغي بشرطين لا بد أن يتوافرا في شاهده ومثاله ليعد استدراجا، الأول: قصد الإقناع أو الإلزام أو الاحتجاج للمعارض أو المتمنِّع أو الشاك، والثاني: اللطف والتدرج في ذلك كله.

وقد رأينا أن هذين الشرطين يتحققان في بعض امثلة الفن وشواهده، وقد لا يتحققان، فصار المجال خاضعا لهما، فما توفرا فيه حمل على أنه (استدراج)، وما لم يتحققا فيه معا لم يكن استدراجا.. وهذه مرونة في هذا الفن تقتضي التدقيق في شواهده.

كما تزاحم هذا المصطلح مع مقاربات له في المفهوم والدلالة والاستعمال، مثل : (المخادعة)، و(الكيد)، و(المغالطة)، و(التمويه).. لكنه استطاع أن يتحرر ويستقل عنها بالنحو الذي أظهرته هذه الدراسة بتفصيلاتها.

فلذلك كان لهذا المصطلح شخصيته البلاغية واعتباره الأسلوبي الذي يرفع من مترلته في الدرس البلاغي.

ومن نتائج هذه الدراسة أن كشفت طريقة التعامل مع

نصوصه، والمنهج المتكامل فيها، وهو تجزئة النص إلى مكوناته الصغرى ثم ما هو فوق ذلك وصولا إلى بنيته الكاملة للكشف عن وجوه الاستدراج فيه، من ناحية اختيار وقت الكلام، وظروف الخطاب، ثم كلمات النص ومفرداته، ثم تراكيبه وصوره.. وبذلك يدرك القارئ أنه ليس الاستدراج عبارة عن فن بديعي مثلا، كفن الجناس أو الطباق، بل هو اتجاه في البلاغة والخطاب، يستجلب فيه المتكلم كل مامن شأنه استدناء القبول لدى المخاطب واستدعائه، واستباق النفور والمعارضة بقطع أسبابها ومولداتها في نفس المخاطب.

وختم هذا البحث باستنباط من وقفات العلماء هنا وهناك التي دلت على طريق إتقان مهارات الاستدراج البليغ وإحكامها، لمن أراد سلوك هذا الطريق، بل لكل من له في ميدان البلاغة وصف أو سهم أو ذِكر.

مصادر البحث

-أنوار الربيع في أنواع البديع ، صدر الدين ،ابن معصوم. الناشر دار المعرفة، بيروت، ١٤١١ ه

- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ

- البديع في البديع، أبو العباس، ابن المعتز ،الناشر: دار الجيل، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن عاشور ، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ

- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ

- فتح القدير ، للشوكاني، الناشر: دار ابن كثير ودار الكلم الطيب

- دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: ابن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، الشربيني، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، سنة النشر: ١٢٨٥ هـ.
- دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون،الأحمد نكري ، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، شهاب الدين الخفاجي، دار النشر: دار صادر - بيروت.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، المحقق: عصام شقيو، الناشر: دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت، الطبعة: الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.

- الـــدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس السمين الحلبي ، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.
-روح البيان، إسماعيل حقي البروساوي، الناشر: دار الفكر – بيروت. ب.ت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـــ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـــ - ١٩٨١ م.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـــ.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، أبو محمد البغوي ، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـــ.
- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي القاري، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـــ - ٢٠٠٢م.

- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.
-معاني القرآن، أبو جعفر النحاس، المحقق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى– مكة المرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: دار الكتب الشرقية.